

جملة !

الجنون شرفة واطئة تطلّ على الغروب.

هي الجملة الوحيدة التي أذكر من كل ما كتبت. لو أحصيتُ الجملَ التي كتبتها لجاعت كثيرة. بالعشرات حتما. لا بل بالمئات. ولا أذكر واحدةً منها. أذكر جملا لأخرين - قلة هم - لكنها نسبيا ذات عدد. مني أنا لا أحفظ شيئا. إلا تلك الجملة في روايتي الأولى. جملة وحيدة من ستّ كلمات. لا أكثر.

وأحبّ أني بتّ لا أحبّ الكلامَ الكثيرَ كثيرا. وأحبّ القلة التي أنا فيها. فلستُ "أقبل" الكلامَ بعد. أقول "أقبل" من قابلية. المرضى "لا يقبلون" الطعامَ مثلا. أنا "مرضى" أيضا. من نوع آخر. مرضى "لا يقبلون" الكلامَ. كلّه. مكتوبا. مهموسا. ومضمرا حتى.

حالة غثيان. دُوار كلام. وأصوات تتلاطم. وزبد يزبد. وكلام يعصف. وكلام يعلو ولا يقول شيئا. ويبقى على المعدة. أكثره قاس كمطاط لا يُلَاك. يتمدّد ويتلوى ويتناول. لا يقطع شيئا. لا تأتي عليه نار. لا يهلك. لا يتعب. لا يخجل. لا يملّ. لا يتعذب. لا يتساءل. لا يسأل. يتغذى بنفسه. يتكاثر وحيدا. لا يحتاج أذنا، لسانا، عينا، يدا. كلام مسخ يتوالد من ذاته. لا ربّ له ولا رادع. فاجر. على مداه. من دون معنى. منفلت الغرائز. يستبيح ويستباح.

ممالكُ من كلامٍ حجريّ بأبراجٍ مسنّنة ترفّ على صوايرها أعضاءً مبتورة وجثثُ
أولادٍ خبروا القتلَ قبل أن يذوقوا الحياة ؛
وحروبٌ من كلامٍ حارقٍ قاتمٍ يقذف كرات من جحيم تكسر زجاج السماء ؛
وسيوفٌ من كلامٍ معقوفٍ، قاطعٍ، مستبدٍّ، يحبّ الدماء مجبولة بأملّاح الماضي
وطحين الكبرياء ؛
ووحوشٌ من كلامٍ يزأر ويتصارع ويغلب فيبقر البطون ويدق الأعناق.

وكلام !

ومع هذا .

لا مكان كلما تقلص المكان، إلا صفحة من ورق أغلّ في سطورها، أتأخى وحروفها،
أتفياً بظللها ... ظلّ الكلمة المعنى... الكلام الذي فقد ظلّه... كلام الظلّ...

الجنون شرفة واطئة تطل على الغروب.

في مراهقتي، عرفتُ جملةً أخرى: طوبى لأسراب السمك المهاجر عكس التيار.
جاعتني ذات يوم وأنا سابحة فوق رسالة إلى صديق. ثم غادرت. لست أدري سببا لذلك.
ولم يكن خصاما أو إهمالا مني أو سوء معاملة. أظنّها كبرت أو أنني كبرتُ عليها وأنا في
منتصف العشرين، وأنا في منتصف الحرب الأهلية، وأنا في طريقي إلى الغربية، وأنا في
منتصف السؤال.

اليوم، وأنا في الأربعين وسط معمعة الكلام كله هذا، لا أجد جملة لي. جملة وحيدة
في فيضانات الكلام الهادر وأورامه. جملة لا غير، أغفو على خاصرتها وأنا أحصي
نجوما مطفاة تتقب جلد ليلٍ عليل. جملة ليس إلا، أتبنّاها وتبنّاني، أرهاها وترعاني ونأس
إلى بعضنا شجرتين عاريتين بثمر من عيدان ثقاب. جملة فقط كي يستوي العالمُ برهة.
جملة حبيبة، جملة صديقة، جملة مظلة، جملة درع، جملة مصل، جملة لقا، جملة
بنسيلين... أيّ جملة...

جملة واحدة يا مُحسنين!!

نجوى بركات